
4
قصص الصحابة
امرأة من أهل الجنة
سلوى العناني
دار اللطائف

امرأة من أهل الجنة

(بــركــة)

[أم أيمن أمي بعد أمي]

صدق رسول الله

سنتحدثُ الآن عن واحدةٍ من خيرِ النساءِ المسلماتِ اللواتي لازَمْنَ الرسولَ ـ عليه السلامُ ـ منذ لحظةِ مولده وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ..

كان اسمها (بركة) .. فلما تزوجت أنجبت صبيا أسمته (أيمن) ومن يومها عُرِفت باسم (أم أيمن) .. وبهذا الاسم تحدثت عنها كتبُ السِّيرة ، ونحن عندما نتحدث عنها قبل ميلاد (أيمن) سنسميها (بركة) أما بعد ميلاد أيمن فسنطلق عليها اسم (أم أيمن) .

•••

كان شابًا من أكرم شباب مكة .. فهو سليلُ أشرف عائلاتها وابنُ أعرقِ قبائلها .. وكان الجميع يتطلع عليه – كلما غدا أو راح – بإكبارٍ وإعزازٍ واحترامٍ .. فهو فوق كل

ما ذكرنا .. شابٌ وسيمُ الطلعة .. في مشيته رجولة .. وفي حديثه حكمة وفي مجلسه أُنْس ..

هو عبدُ الله بنُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي .

هو الشابُّ الذي افتداه أبوه بمائةٍ من الإبل وفاء لنذر .. وكان هذا هو أغلى فداءٍ دفعه أحدُ العرب حتى هذا التاريخ .

ولما بلغ عبدُ الله الرابعة والعشرين رغب أبوه أن يزوجه ، وكان لابد أن يبحث عن فتاة لا تقل شرَفا ولا حَسَبًا عن ابنه .. وجد هذه المواصفات في آمنةَ بنت وهب ابن عبد مناف سيد بني زهرة .

يا له من اختيار .. أن يتزوج ابن سيدِ بني هاشم من ابنة سيد بني زهرة .. وتمضي الأسابيع بالعروسين مُسْرعة .. وتشعر الزوجة الشابة بأعراض الحمل ، لتدخل سعادةٌ جديدةٌ إلى حياةِ هذه الأسرة الصغيرة .

لكن إقامة الزوج مع زوجته لم تَطُلْ .. فقد خَرَجَ في تجارة إلى بلاد الشام وترك عروسه في بيت أبيه ومعها جاريتُه الحبشية (بركة) .

مضت الأيام على آمنـة بطيئـة متثاقلـة .. وكيـف لهـا أن تَسْعد وقد سافر زوجها بعد أسابيع قليلة من زواجهما .

ويأتي الناعي بخبر وفاةِ فتى قريش .. زينة فتيـان بني هاشم .. وسيمِ الطلعةِ ، جميلِ الأخلاقِ .. وتتهاوى (آمنة) .. وتنهار قواها.. وتشعر أن الدنيا قد خلت من الحُبِّ والسعادة .. إلا أنَّ (بركة) الجارية الحبشية كانت نِعْمَ المُعين وخَيْرَ رفيقٍ (لآمنة) .. فكانت ترعاها وتهتم بحملها .. وتسري عنها بالحديث ..

كانت (بركةُ) ضمن الإرث المتواضع الذي تركه (عبدُ الله).. وكان هذا الإرث يشمل خمسةً من الإبل وقطيعًا من الأغنامِ .. وهذه الجارية الطيبة الحنون (بركة) ..

وتتقدم شهورُ الحمل (بآمنة) حتى تأتي ساعة المخاض .

وتقف (بركة) إلى جوار سيدتها تساعدها وتخفف عنها آلام الوضع حتى تستقبل المولود على يديها .. تُسرع إليه فتلفه وتحتضنه في حُبٍّ .. ولم لا .. إنه الحبيب ابن الحبيب والحبيبة ..

وأسرعت (بركة) بالوليد إلى جَدِّه الذي كان جالسًا بجوار الكعبة فَسُرَّ به وقبله وطاف به متباركا .. ثم أسماه (محمدًا) .

هكذا كانت (بركة) هي أول حضن ضَمَّ محمدَ بن عبد الله لتظل إلى جواره لا تفارقه حتى يلقى ربَّه .

ورضيت (آمنة) بقضاء الله ورأت في ابنها (محمد) خير عِوَضٍ عن فَقْد زوجها الذي اختطفه الموت منها وهو ما زال شابا .. فضاعفت حنانها ورعايتها له ، وكان من عادتها أن تسافر مرة في كل عام إلى (يثرب) حيث بني عدي (أخوال عبد المطلب جد ابنها محمد) .. وتزور قبر زوجها الحبيب .. وكان يصحبها في رحلتها ابنها وخادمته (بركة) التي لم تكن تفارقها أبدا ..

وتروي لنا (بركة) عن ذكريات إحدى هذه الزيارات (ليثربَ) فتقول :

(أتاني رجلان من اليهود يوما نصف النهار فقالا : أخرجي لنا أحمد ، فأخرجته فنظرا إليه وقبلاه مليا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : هذا نبيُّ هذه الأمة .. وهذه دارُ هجرته ، وسيكون بهذه البلدة من القتل والسبي أمرٌ عظيم .

قالت بركة : ووعيت ذلك كله من كلامهما) .

لقد بشَّرت كتبُ الأديان السماوية السابقة على الإسلام برسالة محمد وذكرت أوصاف هذا النبي وظروف دعوته ..

إلا أن عددًا كبيرًا من أتباع هذه الأديان (خاصة اليهود) لم يؤمنوا بمحمد ولا بدعوته .. وها هي (بركة) مربيته الرؤوم تروي هذه الرواية التي تؤكد علم هؤلاء بقرب ظهور نبي .

وفي طريق العودةِ من إحدى هذه الزيارات .. وكان (محمدٌ) في حوالي السادسة من عمره .. مرضت (آمنة) ثم اختطفها الموتُ لتُدفن - هي الأخرى - بالقرب من (يثرب) .

حزن الفتى (محمدٌ) حزنا شديدا من أجل أمه .. بغيابها ستحيطه الوحدةُ والوحشةُ .. فقد كانت هي مصدرَ حنانِ الوجودِ .. بعد فقده لأبيه .

لابد أنه كان موقفا قاسيا على (بركة) التي استيقظت فيها مشاعرُ الأمومة .. وعَصَرَها الألمُ لحال هذا الطفلِ الذي كُتِبَ عليه اليتمُ من أبيه ومن أمه وهو لم يزل ابن السادسة .. وشعرت (بركة) بأنها أمام مسئوليةٍ كبيرةٍ .. فهي جاريةُ الطفلِ التي ورثها عن أبيه .. وهي المخلوقُ الوحيدُ المتفرغ لخدمته .

وإلى بيت جده (عبد المطلب) عاد (محمد) ومعه (بركة) التي ظلت ترعى شئونه وتقوم على خدمته .. وكانت له

نِعْمَ الأم بعد أمه .

ومن ذكريات هذه المرحلة تحكي لنا بركة هذه الحكاية :

(كنت أحضن(*) رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول : يا بركة !

قلت : لبيك .. قال : أتدرين أين وجدت ابني (يعني حفيده محمدًا) .. قلت : لا أدري .. قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، فلا تغفلي عنه ، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبيُّ هذه الأمة ، وأنا لا آمنهم عليه) .

إذا .. فقد كانت معرفة أهل الكتاب بنبوة (محمد) أمرا معروفا ومنتشرا حتى إن جدّه كان شديدَ الحرص عليه .. يوصي (بركة) ألا تغمض عينيها عنه لحظةً خشية أن يتعرض له أحد بأذى . كان الجد (عبد المطلب) شديدَ التعلق بحفيده (محمد) فهو ابن (عبد الله) الفتى الذي لم تشهد له مكةَ نظيرًا في الجمالِ والحكمةِ والوسامةِ والرزانةِ .. الفتى الذي افتداه أبوه بأغلى ما يفتدي أبٌ ابنه حتى هذا التاريخ .

(*) أحضن : أقوم على رعاية الطفل وخدمته .

وتضاعف حنانُ الجد على حفيده بعد موت أمِّه (آمنة) وتضاعفت مسئوليتُه عنه .. لكنه كان يرى في (بركة) خيرَ مُعين له على تحمل هذا .. فهي بديلٌ عن الأمِّ حنانا ورعاية .. وبديلٌ عن الأب مراقبة وحماية .

وتروى الأخبار أن (عبد المطلب) .. وهو سيد قريش وكبير أشرافها كان يُصِرُّ على أن يجلس (محمد) إلى جواره على الفراش المخصص له بينما يجلس باقي أبنائه بعيدا . وكان كثيرا ما يربت على كتفه ويسمعه حلو الكلمات ، وكأنه يتمنى أن يُخفِّفَ عن كاهلِ هذا الصغيرِ ألمَ اليتم الذي عاناه ..

ولحكمة لا يعلمها إلا الله وحده ماتَ الجدُّ (عبد المطلب) بعد عامين من موت (آمنة) لينطفئ آخر مصابيح الحنان في حياة (محمد).

ويروى أن محمدًا بكى جدَّه بحرقة شديدة .. فقد كان يبكي فيه الجد الحنون .. والأبَ الذي مات قبل أن يُولد .. والأم التي حرمه الموت من دفء أحضانها .

لكنَّ عينَ (بركة) لم تكنْ تغفل لحظة عن الصبيِّ .. ولم تبخلْ عليه بالحبِّ والحنانِ والدفءِ وصدق الرعاية ..

وكأنها تحاول أن تعوضه عما فقد .. مرة بعد الأخرى .

وبعد موتِ (عبد المطلب) انتقل (محمدٌ) ومعه (بركة) إلى بيت عمه (أبي طالب) الذي كَفَلَ الصغيرَ بعد جده .. وتتمسك (بركة) بصغيرِها وتصرُّ على رفقته ورعايته وتحرص على كل شئونه ..

ومما ترويه ـ رضى الله عنها ـ عن طفولة النبيِّ صلى الله عليه وسلم.. تقول : (ما رأيت رسول الله شكا جوعا ولا عطشا لا في كِبَرِه ولا في صِغَرِه .. كان يغدو إذا أصبح فيشربَ من ماءِ زمزم شربة .. فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول : أنا شبعان) .

لم تكن طفولةُ النبيِّ ـ عليه السلامُ ـ ولا صِباه مثل طفولة وصِبَا باقي أقرانه وأترابه بل كان نسيجا خاصا وطبيعة مختلفة.. كان كثيرَ التأمل .. هادئ الطبع .. مبتعدًا عن أماكن اللهو والعبث .. كثير الصمت وكأنه يفتش عن حقيقة يراها غائبة ..

وكان في نفس الوقت عازفا عن الطقوس والاحتفالات الدينية التي تُقام للأصنام والأوثان .

فكما عَصَمَه الله من الهوى التي يَزِلُّ فيها بعضُ

الشباب .. عصمه عن السجود للأصنام ..

تروي (بركةُ) أنه كان (ببوانة)(*) صنم تحضره قريش وتعظِّمه وتنسك له النسائك ويحلقون رؤوسَهم عنده ويعكفون عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلمُ رسولَ الله ـ عليه السلام ـ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسولُ الله ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غَضِبَ عليه ورأيت عماته غَضِبْنَ عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : ما تريد يا محمدُ أن تحضر لقومِك عيدًا ، ولا تُكثر لهم ؟

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فَزِعا ، قالت عماته : ما دهاك؟.. قال : إني أخشى أن يكون بي لمم .. فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خِصَال الخير ما فيك .. فما الذي رأيت؟

قال : إني كلما دنوت من صنمٍ منها تَمثَّل لي رجلٌ أبيض طويلٌ يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .. فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ(**) .

(*) بوانة : منطقة قريبة من ساحل البحر الأحمر .
(**) تنبأ : نزل عليه وحي النبوة .

كان (محمد) عليه السلامُ إنسانا رقيقا مرهف الحسِّ صادقَ المشاعر .. فقد أدرك مدى إخلاص خادمته (بركة) وكان يقدّر ما تصنع من أجله ويشعرُ بعواطفها الصادقة تجاهه ..

فلما تزوج ـ عليه السلامُ ـ من السيدة خديجة أعتق (بركة) تقديرا لما صنعت وعرفانا بجميلها .. إلا أن (بركة) لم تترك بيتَ (محمدٍ) ولم تجدْ في عِتْقها أي امتياز يجعلها تغادره .. فقد كان سيدها يُحسن معاملتها ويشعرها دائما بآدميتها ويقدر عطاءها .. وهذا هو نبي الإسلام محمد .. يكرم خادمه ويطعمه مما يطعم ويكسوه مما يَلبس ولا يسمعه ما يجرح إنسانيته ولا ينهره أبدا حتى لو أخطأ .

لقد أصرَّتْ (بركة) على صُحبة النبي وهي حُرة .. كما أحبت صُحبته وهي جارية .. فقد كانت أقرب الناسِ إلى رسول الله وكان يناديها (يا أمَّه) وكثيرا ما قال عنها .. (هذه بقيةَ أهل بيتي).

وتزوجتْ (بركةُ) من رجل من بني حارث يدعى عبيد ابن زيد وأنجبت منه (أيمن) الذي كانت تُنادَى باسمه وأصبحت تعرف (بأم أيمن) ولما نزل الوحي على رسول

الله ـ عليه السلام ـ كانت (أم أيمن) و(أيمن) من أوائل من دخل الدينَ الحنيفَ وكان ولاؤهمـا للنـبي الكريـم ولاء لا نظيرَ له ..

وتقول بعض الروايات إن (أم أيمن) هاجرت بدينها مـع من هاجَر من المسلمين الأوائلِ إلى الحبشة ..

لكنها هاجرت بكل تأكيد مع النبيِّ إلى المدينة ..

ويموت (عبيد بن زيد) زوج (أم أيمن) وتستيقظُ في قلب النبي مشاعر البنوة تجاه المرأة التي يقول عنها (أمي بعد أمي) ويشعر بمسئوليةٍ تجاهها وتجاه استقرارها وأمنها .. فيرى أنــه يجب عليه أن يزوجها.

جلس النبيُّ يوما بين أصحابـه وقـال لهـم : مـن سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج (أم أيمن).

ويبادر (زيدُ بن حارثة) حِبُّ رسولِ الله ومولاه .. ليـتزوج هذه السيدة الفاضلة.

كـان (زيـدٌ) لا يقـل فضـلا عـن (أم أيـمن). فـهو مـن السابقين إلى الإسلام وهو الذي آثر البقاء مـع النـبي عـن العودة لأهله ، وهو الذي قالت عنـه السـيدة عائشـة : (مـا بعـث رسـول الله زيـدَ بـن حارثـة في جيـش قـط إلا أمَّـره

عليهم .. ولو بقي حيا بعد الرسول لاستخلفه) .

وها هو (زيد) يبادر ليتزوج امرأة تقية صالحة رغم أنها تكبره سنا وليس لها مال ولا جمال يغري شابًا في مثل سن (زيد) .. لكنه اختارها لتقاها وورعها وحُسن إسلامها .. وهو يأخذ بنصيحة رسول الله (اظفر بذات الدين) .. وقد ظَفَرَ زيدُ بن حارثة بذات الدين التي قال عنها الرسول : (امرأة من أهل الجنة) .

ويثمر الزواجُ فتى مسلما تشهدُ له ساحاتُ القتالِ في سبيل الله والجهاد لنصرة دينه هو (أسامة بن زيد) الذي قاد جيشَ المسلمين في عديد من المعارك والمواقف وخرج فيها جميعا منتصرا .

فهل اقتصر دور (أم أيمن) في الحياة على حَضانة النبيِّ وخدمته ثم حضانة أولادها (أيمن) و(أسامة) وتربيتهم على مبادئ الإسلام حتى أصبحا من أعلام الدعوة الإسلامية ؟

لا .. لم يكن هذا هو دور أم أيمن فقط .. وهو دور عظيم ورائع أدَّته هذه السيدةُ العظيمة على خير وجه ..

لكنها كانت فوق هذا الدور محاربةً صامدةً .. فقد حَضَرَتْ كل المشاهدِ والغزوات مع رسول الله .. و كان دورُ

النساء في هذه المعارك خلف صفوف المقاتلين دائما ..

في أُحُدٍ .. كانت (أم أيمن) مع غيرها من النساء تداوي الجرحى وتسقي المحاربين .. وفي خيبر كانت تحارب مع المحاربين وتخدم المقاتلين خلف صفوف القتال حتى إن النبيَّ - عليه السلامُ - كان يعطيها حقها من (الفيء)(*) .

عُمِّرت (أم أيمن) حتى جاوزت التسعين .. وشهدت وفاة النبيِّ - عليه السلامُ - ووفاةُ أبي بكر وعمر .. وكان بكاؤها على النبيِّ بكاء حارا .. فهو الابن الحبيب .. وهو الرسول الكريم .

عاشت (أم أيمن) تذكر كيف كان النبي يمازحها .. فقد طلبت منه يوما أن يحملها – أي يعطيها ناقةً تركبها في سفر – فقال عليه السلام : أحملك على ولد ناقة .. فظنت أنه يريد أن يحملها على فصيل(**) .. فقالت : يا رسول الله .. لا يطيقني ولا أريده .. فقال: لا أحملك إلا على ولد ناقة ..

وكان الرسول يمزح ولا يقول إلا الحق .. فالإبل كلها ولد ناقة ..

(*) الفيء : غنائم الحرب

(**) الفصيل : هو وليد الناقة .

ومن المواعظ النبوية التي نقلتها لنا (أم أيمن) أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

"لا تشرك بالله شيئا وإن عُذبت وإن حُرقت، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فاخرجْ منه، ولا تتركْ صلاةً مكتوبةً عمدًا .. فإن من ترك الصلاة عمدًا فقد برئت منه ذِمة الله .. وإياك و الخمر .. فإنها مفتاح كل شر، وإياك ومعصية الله فإنها موجبة لسخط الله ولا تَغْلُلْ(*) ولا تفر يوم الزحف وإن هلكت وفَرَّ أصحابك، وإن أصاب الناسَ مَوَتانٌ(**) وأنت فيهم فاثبت، ولا تنازع الأمرَ أهله، وإن رأيت أنه لك، وأنفق من طَوْلك(***) على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أدبا، وأخفهم في الله عز وجل" صدق رسول الله.

(*) الغلول: هو الخيانة.
(**) الموتان: هو الوباء.
(***) الطول: الغنى واليسر.